فقه الموازنات

في السياسات النبوية

السياسات النبوية الشريفة أرقى السياسات البشرية ، كيف لا وهي مؤيدة ومسددة من الله تعالى ، ومن سياساته عليه السلام نتعلم الكثير من فقه الموازنات الذي نحتاجه فيما نمارسه من سياسات في حياتنا المعاصرة ، وفي هذه الحلقة عرض لفقه الموازنات في بعض السياسات النبوية .

أولاً: قضية أسرى بدر

لما أسر المسلمون سبعين رجلاً من قريش في غزوة بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي يراه أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننا منهم، فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان (نسيبٌ لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدهم، فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهْوَ ما قال عمر .

فلما كان من الغد جاء عمر فإذا رسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، فقال يا رسول الله: أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، ولقد عُرِض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة" – شجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم – وأنزل الله عز وجل: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) إلى قوله : (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً) (الأنفال: ٦٧ – 69)، فأحل الله لهم الغنيمة .

في قضية الأسرى رأينا النبي صلى الله عليه وسلم يستشير الصحابة في أمرهم ليتوصل إلى أكثر الأمور تحقيقاً للمصلحة، فكان رأي الفاروق أن يقتلوا جميعاً لأن ذلك يحقق مصلحةً كبيرةً للدولة الإسلامية وهذه المصلحة تتمثل في إرهاب العدو، وإظهار أن الدولة الإسلامية قوية الجانب لا تتهاون مع المجرمين والمفسدين في الأرض، ومن المصالح أيضاً التخلص من صناديد الكفر كيلا يقفوا عائقاً أمام الدولة الإسلامية.

وكان رأي الصديق رضوان الله عليه يميل إلى الرفق بهم لأن في ذلك تحقيق مصالح تربو على مصلحة قتلهم والتخلص منهم، فمن هذه المصالح الكسب المادي الذي تحصله الدولة الإسلامية من فداء الأسرى لأن الدولة بحاجةٍ ماسةٍ للمال،

ومن المصالح إعطاء فرصة لهؤلاء الكفرة ليتفكروا فيما أقدموا عليه من عداوةٍ للإسلام وما قابلهم به رسول الله من حسن معاملةٍ إذ هم أهله وعشيرته، لعل ذلك يعيدهم إلى جادة الصواب، ويهديهم إلى اتباع الدين الحق، وهذا ما حصل مع الأيام، إذ دخل عددٌ منهم في الإسلام.

ولقد هوى الرسول رأي الصديق لما يحققه من مصالح، وأضاف إليها مصالح أخرى تتمثل في جعل فداء من لا يملك الفداء من الأسرى تعليم أولاد الأنصار الكتابة؛ وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يعلم عشرة من الغلمان يفدي نفسه .

ولكن القرآن نزل بترجيح الرأي القائل بقتل الأسرى، لأن دولة المسلمين في مرحلة التكوين والإعداد، وينبغي ألا تظهر بمظهر اللين، حتى تُرْهَب من قبل أعدائها، وفي سبيل هذه الكلية يطرح الاهتمام بالجزئيات حتى ولو كانت الحاجة ملحة إليها .

يقول سيد قطب رحمه الله: "لقد كانت غزوة بدر هي المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين، وكان المسلمون ما يزالون قلةً والمشركون ما يزالون كثرة، وكان نقص عدد المحاربين من المشركين مما يكسر شوكتهم ويذل كبرياءهم ويعجزهم عن معاودة الكرة على المسلمين، وكان هذا هدفاً لا يعدله المال الذي يأخذونه مهما يكونوا فقراء،

وكان هنالك معنى آخر يراد تقريره في النفوس وتثبيته في القلوب ذلك هوالمعنى الكبير الذي عبر عنه عمر – رضي الله عنه – في صرامةٍ ونصاعةٍ وهو يقول: "وحتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين"، لهذين السببين البارزين نحسب – والله أعلم – أن الله سبحانه كره للمسلمين أن يأخذوا الأسرى يوم بدرٍ وأن يفادوهم بالمال ، ولكن مع ذلك أقرت الآيات المتلاحقة ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم، مع كونه مفضولاً في هذه المرحلة.

.

إن طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم في التعامل مع الأسرى مبنية على موازناتٍ دقيقة وخاصةً في التعامل مع أصناف الأسرى، فالأغنياء منهم يأخذ منهم الفداء تقويةً للدولة الإسلامية بمالهم، والطواغيت منهم يقتلون كسراً لشوكة الكافرين وإرهاباً لمن وراءهم، والمتعلمون منهم يعلمون أولاد المسلمين ليرفع الأمية عن المجتمع المسلم، والضعفاء الذين لا شوكة لهم يمن عليهم بالفداء طمعاً في إسلامهم، وبالتالي فالإمام المسلم مفوضٌ في أمر الأسرى على أن يكون الاختيار مبنياً على مصلحة المسلمين العامة.

ثانياً: تخريب ممتلكات العدو

ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحصار على بني النضير لمدة خمس عشرة يوماً، ولكن ذلك لم يؤثر في كسر عزيمتهم وإجبارهم على الاستسلام، فلجأ رسول الله إلى أسلوبٍ آخر للضغط عليهم فأمر بقطع نخيلهم وتحريقها، فضعفت حماستهم للقتال، فنادوا: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟، وألقى الله في قلوبهم الرعب، وأدرك بنو النضير أن لا مفر من جلائهم، ودب اليأس في قلوبهم وخاصة بعد أن أخلف ابن أُبي وعده بنصرهم، فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسألوه أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل .

في هذه الغزوة استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب النفسية لتحطيم معنويات العدو، ولجأ إلى أسلوب جديد وهو قطع نخيلهم وهو أعز ما يملكون، وكان لذلك أعظم الأثر في هزيمتهم النفسية واستسلامهم للرسول ونزولهم عند أمره، وقد استخدم نفس الأسلوب مع ثقيف حيث إنه لما طال حصار الطائف، واشتدت مقاومة أهلها وقتلوا مجموعة من المسلمين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف، ثم أوقف هذا العمل بعدما أحدث أثره في معنوياتهم وأضعف روح المقاومة عندهم، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله والرحم أن يترك هذا العمل، كما ووجه النبي صلى الله عليه وسلم نداءً لعبيد الطائف أن من ينزل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد فأسلموا، فأعتقهم ولم يُعِدهُم إلى ثقيف بعد إسلامهم .

وهذا من الحرب النفسية وهي قليلة التكاليف عظيمة الأثر، فحريٌ بالمسلمين أن يعوها ويعرفوا مصالحها ووسائلها المتنوعة والمتبدلة بتبدل الأزمان.

على أن هذا القطع والتخريب ليس على إطلاقه، بل تتحكم به المصلحة وفقه الموازنات، إذ إن هذه الممتلكات ستؤول إلى المسلمين فلا مسوغ لإتلافها عليهم ما لم يجلب الإتلاف مصلحةً أكبر من الإتلاف، كإخافة العدو وإخزائه يقول في ذلك العز بن عبد السلام رحمه الله : "وأما إتلاف أموال الكافرين بالتحريق والتخريب وقطع الأشجار، فإنه جائزٌ لإخزائهم وإرغامهم بدليل قوله تعالى: (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها إلا بإذن الله)(الحشر: ٥)، ومثله قتل خيولهم وإبلهم إذا كانوا تحتهم في حال القتال، وكذلك قتل أطفالهم إذا تترسوا بهم لأنه أشد إخزاءً لهم من تحريق ديارهم وقطع أشجارهم"

وقد توسع الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله في شرح هذه الآية فقال ما ملخصه بعد أن ساق آراء الفقهاء في ذلك:

"والذي ننتهي إليه بالنسبة لما يكون في الحرب من هدم وتحريق وتخريب أنه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبي صلى الله عليه وسلم في حروبه: 1-أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء؛ لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية، ولكن دفع أذى الراعي الظالم وبذلك وردت الآثار.

2-أنه إذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجبه ضرورةٌ حربيةٌ لا مناص منها، كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين، فإنه لا مناص من قطع الأشجار وهدم البناء، على أنه ضرورةٌ من ضرورات القتال، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم هنا وفي حصن ثقيف.

3-أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج على أساس هذه الضرورات، لا على أساس إيذاء العدو والإفساد المجرد، فالعدو ليس الشعب، إنما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا" .

من كلام العلامة أبو زهرة رحمه الله نستنتج أن الإفساد والتخريب ليس مقصوداً لذاته لأنه مفسدةٌ، والشرع لا يأمر بالفساد، وإنما أجيز باعتباره وسيلةً لمصالح كبرى تعود على المسلمين تتمثل في النكاية بعدوهم وانكساره واستسلامه لهم، وهذا كما قلنا خاضعٌ لموازناتٍ دقيقةٍ تحدد مقدار الإفساد ومقدار المصالح المرجوة.

ثالثاً: الامتناع عن قتل المنافقين.

إن في قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم للمنافقين مصلحةً كبيرةً تتمثل في التخلص من الطابور الخامس الذي يعكر على المسلمين صفو حياتهم، وتطهيرٌ للصف المسلم من عناصر التخذيل والإفساد، وفيه إعزازٌ للدين بقمع الكفر، ولكن هذه المصالح ستؤدي إلى مفاسد عظيمة تربو عليها فالكف عنهم يدرأ هذه المفاسد التي من أعظمها هز الثقة بالمسلمين، وزرع قالة السوء عنهم حيث سينتشر بين الناس أن محمداً يعامل معتنقي دينه بالقتل والتصفية الجسدية، فالتغاضي عن قتلهم هو الأولى لما يحقق من مصالح تربو على مصلحة استئصالهم لذا اقتضت حكمة الرسول دفع المفسدة الكبرى بارتكاب المفسدة الصغرى، أو التخلي عن المصلحة الصغرى، تحقيقاً للعديد من المصالح والتي منها:

1. درء السمعة السياسية والإعلامية السيئة التي ستشاع عن الرسول ودعوته، فالفرق كبيرٌ جدًّا بين أن يتحدث الناس عن حب أصحاب محمدٍ محمدًا، وبين أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، ولا شك أن وراء ذلك محاولات ضخمة من العدو للدخول إلى الصف الداخلي في المدينة، بينما هم يائسون الآن من قدرتهم على شيء أمام ذلك الحب وتِلكُم التضحيات.

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله في ذلك: "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكف عن قتل المنافقين مع كونه مصلحةً، لئلا يكون ذريعةً إلى تنفير الناس عنه، وقولهم: إن محمداً يقتل أصحابه، فإن هذا القول يوجب النفور عن الإسلام ممن دخل فيه، ومن لم يدخل، ومفسدة التنفير أكبر من مفسدة ترك قتلهم، ومصلحة التأليف أعظم من مصلحة القتل" .

2- الحفاظ على وحدة الصف المسلم، وذلك لأن لابن أبي أتباعًا وشيعةً مسلمين مغرورين، ولو فتك به لأرعدت له أنوفٌ، وغضب له رجالٌ متحمسون له، وقد يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أي مصلحةٍ للمسلمين ولا للإسلام، وإنها لسياسةٌ شرعيةٌ حكيمةٌ رشيدةٌ في معالجة المواقف العصبية في حزمٍ وقوة أعصابٍ وبُعد نظر .

3-كما أن في العفو مصلحةٌ شرعيةٌ، وهي تأليف قلوب قومه وتابعيه، فقد كان يدين له بالولاء فئةٌ كبيرةٌ من المنافقين، فعسى أن يتأثروا ويرجعوا عن نفاقهم ويعتبروا ويخلصوا لله ولرسوله، ولو لم يجب ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح لكان سبةً وعاراً على ابنه وقومه، فالرسول الكريم اتبع أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نهي فانتهى .

لقد كان لتسامح الرسول صلى الله عليه وسلم مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أبي ابن سلول كلما أحدث حدثًا كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه، ويعنفونه، ويعرضون قتله على النبي صلى الله عليه وسلم، والرسول يأبى ويصفح، فأراد رسول الله أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي لأرعدت له أنوفٌ لو أمرتها اليوم لقتلته»، فقال عمر: قد – والله – علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري .

4-إكرام ابن عبد الله بن أبي المسلم الصادق وعدم فتنته عن دينه بفعل ما قد يخدش شعوره ويهز علاقته بإخوانه المؤمنين، لذلك رأيناه هونفسه يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليقول له: "يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل أبي ابن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر فأدخل النار"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا .

رابعاً: فقه الموازنات في صلح الحديبية .

لي عدة وقفات تتعلق بفقه الموازنات المستفادة من صلح الحديبية:

الوقفة الأولى: فقه الموازنات في التعامل مع الأشخاص

فليست طريقة التعامل مع الخصوم والأعداء واحدةً، فهناك قليل العداوة الذي يقف موقف التوسط بين المسلمين وعدوهم، وهناك اللئيم الغادر، وهناك الحكيم العاقل، وهناك الذي تؤثر فيه الأمور الشعائرية، لذلك رأينا تعامل النبي مع هؤلاء السفراء بحسب طبيعتهم.

فهذا بديل بن ورقاء زعيم خزاعة – حلفاء الرسول – الذي يقف في المنتصف بين قريش والرسول، وهو أقرب للرسول منه إلى قريش، يظهر له الرسول الشدة والإصرار على الموقف مع بيان القوة ليدرك أن حليفهم قوي فيزدادوا ثقةً به وبالتحالف معه.

وهذا عروة بن مسعود زعيم ثقيف وهو يبهره منظر الزعامة والالتفاف حول القائد، وقد استعمل أشنع أساليب الاستفزاز ليفت من عضد المسلمين ولكنه وجدهم ملتفين حول قائدهم مما كان له أكبر الأثر على نفسيته ليعود إلى قريش ليفت في عزيمتها، ولينصحهم بالخضوع لأمر الرسول، وبالتالي استطاع الرسول قلب المجن على قريش بتحويل عدوه عن صفها إلى صف مطالبه.

وهذا الحلس بن علقمة زعيم الأحابيش عندما يراه الرسول وهو يعرف طبعه وشخصيته لم يحتج الرسول إلى طول مناظرةٍ معه، وإنما أمر بإجراءٍ عمليٍ يعبر عن مقصده، ويدب الرهبة في قلب الطرف الثاني،

فقال عليه الصلاة والسلام: « هَذَا فُلاَنٌ، وَهْوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ ». فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِى لِهَؤُلاَءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ. فانقلب الحلس عن قريش، وهددهم بالحرب إن لم يفتحوا الطريق أمام الرسول والبيت.

ثم كانت سفارة مكرز بن حفص، وقد أخذ الرسول حذره منه لأنه كما قال عنه: « هَذَا مِكْرَزٌ وَهْوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ ».

ولم يطل النقاش حتى طلع سهيل بن عمرو وهو الرجل السياسي المحنك الذي يؤثر السلم على الحرب، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: « لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ »، فكان الصلح كما رأينا.

هذا هو فقه الموازنات في التعامل مع أصناف الناس، نتعلمه من رسول الله، ونتعلم القدرة على توظيف الطاقات وإدارة الحوار والصراع من غير تشنج، ولا ارتخاء.

الوقفة الثانية: مع بنود الاتفاقية وما فيها من موازنات.

تحتوي الاتفاقية على عدة نقاط أهمها:

1. البدء بعبارة "باسمك اللهم" بدلاً من "بسم الله الرحمن الرحيم".
2. إسقاط لفظ "رسول الله" بعد ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم في وثيقة الصلح.
3. واصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.
4. على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجًّا أو معتمرًا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازًا إلى مصر أو إلى الشام، يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

5-على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

6-وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه (فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم).

7-وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها.

بالنظر إلى البند الأول والثاني: نرى أن رسول الله رضي بالعدول عن (بسم الله الر حمن الرحيم) إلى (باسمك اللهم)، وعن (محمد رسول الله) إلى (محمد بن عبد الله)، وقد اعترض الصحابة على ذلك ومنهم علي – رضي الله عنه – الذي رفض أن يمحو اسم رسول الله، ولكن الرسول محاه بيده، (وبذلك رأينا الرسول عليه الصلاة والسلام **يغلب المصالح الجوهرية والأساسية والمستقبلية على المصالح والاعتبارات الشكلية** التي يتشبث بها بعض الناس، فقبل من الشروط ما قد يظن لأول وهلةٍ أن فيه إجحافاً بالجماعة المسلمة أو رضاً بالدون، ورضي وحذف البسملة المعهودة في وثيقة الصلح ويكتب بدلها (باسمك اللهم)

وأن يحذف وصف الرسالة الملاصق لاسمه الكريم (محمد رسول الله) ويكتفي باسم (محمد بن عبد الله) ليكسب من وراء ذلك الهدنة التي يتفرغ فيها لنشر الدعوة، ومخاطبة ملوك العالم ولا غرو أن سماها الله فتحاً قريباً) .

وأما البند الثالث والرابع: فقد حققا للمسلمين مصالح كثيرة جداً منها:

1. ضمان حياد قريش وعزلها عن أي صراع يحدث في الجزيرة العربية، سواء كان هذا الصراع مع القبائل العربية الأخرى، أم مع اليهود ذلك العدو اللئيم الغادر الذي يتربص بالمسلمين الدوائر.

2-حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يبقى الاتصال مفتوحًا بينه وبين قريش، ليسمع منهم ويسمعوا منه بواسطة الرسل، والسفراء، وفي هذا تقريب للنفوس وتبريد لجو الحرب، وإضعاف لحماسهم نحو القتال.

3-دخلت المهابة في قلوب المشركين والمنافقين، وتيقّن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام، مثل: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم.

4-كما أن دخول المسلمين بالقوة يعني أن تحدث مذابح، وتزهق أرواح كثيرة، وتسفك دماءٌ غزيرةٌ من الطرفين، كما أنه من المحتمل أن ينال الأذى والقتل والتشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم من المسلمين في مكة، وهذا فيه ما فيه من المعرة التي لا يليق بمسلم أن يقع فيها.

5- اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان الدولة المسلمة، فالمعاهدة دائمًا لا تكون إلا بين ندين، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي، حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة.

6-أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام وتعريف الناس به؛ مما أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه، يقول الإمام الزهري رحمه الله : "فما فتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر"

- وعقب عليه ابن هشام رحمه الله بقوله: والدليل على قول الزهري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

7-مكن صلح الحديبية النبي صلى الله عليه وسلم من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارج الجزيرة العربية.

8- ساعد صلح الحديبية النبي صلى الله عليه وسلم على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس والروم والقبط يدعوهم إلى الإسلام.

وأما البند الخامس وهو: "من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه"، فقد رأى فيه الصحابة الضيم والذل، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم وافق عليه وهو يكسب بذلك مصلحتين:

الأولى: التخلص من المنافقين من صفوف المسلمين ليتنقى الصف المسلم منهم.

الثانية: زيادة العبء على قريش بتحمل الأعداد الكبيرة من المسلمين المستضعفين، الأمر الذي سيولد الانفجار في المجتمع المكي، أو تسرب هؤلاء المستضعفين إلى مكانٍ محايدٍ ليمارسوا الضغط الاقتصادي والسياسي والعسكري على قريش، مع عدم تحمل المسلمين تبعات ذلك، وهذا ما حصل عندما فر أبو بصير وأبو جندل وشكلا عصابة مسلحة مع من فر من المستضعفين، فقطعوا على قريش تجارتها وضيقوا عليها، مما اضطر قريشاً إلى التوسل للرسول أن يسقط هذا البند من الاتفاقية.

وأما البند السادس وهو: "أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه"، فقد فتح الباب أمام القبائل العربية المتخوفة من قريش إلى المسارعة للدخول في حلف رسول الله، وكانت أولها خزاعة، ثم تتالت القبائل، وهذا ما ساعد في تنامي قوة المسلمين وفرض عزلة كبيرةٍ على قريش وحلفائها.

وأما البند السابع وهو: وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها.

في هذا البند في الظاهر مفسدةٌ للمسلمين تتمثل بالرجوع عن البيت وقد جاؤوه قاصدين متلهفين وعندهم القدرة على الدخول وتحطيم قوة قريش، ولكن الرسول وافق على هذا البند مما أثار عدداً من الصحابة منهم عمر – رضي الله عنه – واعتبروا في ذلك إعطاءً للدنية ورضاً بالهون، ولكن الرسول سارع لتهدئة روعهم وطمأنتهم بأنهم سيأتون البيت ويطوفون به.

- ولقد كسب الرسول بموافقته على هذا البند أمرين مهمين :

- الأول: دخوله مكة للعمرة في العام المقبل وهو بكامل الراحة والطمأنينة، بل دخلها دخول المنتصر الذي دب في قلب العدو الخور والضعف عندما رأوا عزيمة المسلمين وهمتهم العالية في الطواف والسعي.

الثاني: الدعاية الإعلامية السيئة لقريش حيث إن العقلاء حين يسمعون كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه جاء معظمًا للبيت، والمشركون يردونه، وهو يصر على تعظيمه، سيقف هؤلاء بجانبه ويتعاطفون معه فيقوى مركزه، ويضعُف مركز قريش الإعلامي والديني في نفوس الناس.

لقد كان صلح الحديبية بكل المعايير فتحاً للمسلمين حققوا من ورائه مصالح لم يكونوا ليحلموا بها لولا الصلح وقد عرضنا بعضها آنفاً، لذلك سمعنا البراء – رضي الله عنه – يقول: تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحاً، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ.

كما كان هذا الصلح سببًا ومقدمةً لفتح مكة: يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله : "كانت الهدنة مقدمةً بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له ومفتاحًا ومؤذنًا بين يديه، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قدرًا وشرعًا أن يوطئ لها بين يديها بمقدمات وتوطئات تؤذن لها وتدل عليها .

نلتقي في الحلقة القادمة إن شاء الله